أزمـة المثقف العربي وكيفية الخروج منها

(أفكار جديدة ، الخرطوم: هيئة الأعمال الفكرية، أكتوبر/ديسمبر ١٩٩٧

بروفيسور/ عبده مختار موسى

جامعة أمدرمان الإسلامية/ السودان

drmukhtar60@gmail.com

مقدمـة

هل يعاني المثقف العربي من أزمة؟ وما سبب ومصدر الأزمة: هل ذاتي/داخلي، أم خارجي؟ وكيف يمكن مواجهة الأزمة، وما هو دور المثقف تجاه وطنه والمجتمع والأمة؟

منذ انطلاقة الإسلام الأولى احتدم الصدام بين الإسلام والغرب (بيزنطة آنذاك) ، وساد بينهما الحقد والكراهية إلى عصرنا الحالي. وبانفجار المد الإمبريالي في المرحلة الاستعمارية دخل الغرب معترك العالم الإسلامي، فمزق خريطته ؛ ووضع له حدوداً مصطنعة، وجزأ شعوبه وثقافاته، وبعد أن نهب خيراته بدأ في "تغريبه" ومحو هويته. "ومن جزر الفلبين – كما يقول جان بول رو – إلى قلب إفريقيا، عمل الرجل الأبيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم، وفرض عليه مفاهيمه في الوجود، وطرق معيشته وتفكيره ومخططاته " [١]

لقد ظلت دراسات الغرب عن الإسلام أسيرة للرؤية الأوربية وهي رؤية عدائية تصف المسلمين بالهمجية والعنف والتعصب. وهي دراسات تنطلق من المركزية الأوربية فأصبح الغرب "يقرأ الحضارة العربية الإسلامية من خلال منطق حضارته وتجربته ونماذجه . ورغم أنه يمتلك المنهجية العلمية الموضوعية، ولكنه كان يقرأ الإسلام من خارج الإسلام ، وهو في الآن ذاته يعمل على تفتيت الوحدة الإسلامية وتغريب المسلمين." [٢]

ذكر على عزت بيجو فيتش في كتابه " الإسلام بين الشرق والغرب" : أن عداء الغرب الحالي للإسلام ليس مجرد امتداداً للعداء التلقيدي والصراع الحضاري المسلح بين الإسلام والغرب، منذ الحملات الصليبية، وإنما يرجع لتجربته التاريخية الخاصة مع الدين، وإلى عجزه عن فهم الإسلام لسببين جوهريين ، وهما طبيعة العقل الأوربي (أحادي النظرة) ، وإلى قصور اللغات الأوربية عن استيعاب المصطلحات الإسلامية ." [٣]

الغزوالثقافي:

إن الغزو الثقافي يستهدف خرق نسيج المجتمع المسلم وذلك بتدمير بنائه الأخلاقي وتشويه عقيدته. وهذا الغزو الثقافي قد طبع العصر الحديث بطابع الصراع الحضاري وحرب الأفكار خاصة باستغلال وسائل الإعلام الحديثة كأداة فاعلة في هذه الحرب الجديدة . يقول صمويل هنتنجتون :"إن العالم ينتقل من الصراع السياسي . الأيديولوجي الذي كان أساس الحرب الباردة إلى الصراع الثقافي الذي يشكل أساس الحضارات" . ويبرر ذلك القول : "إن ما يهم الشعوب ليس المصالح الاقتصادية أو السياسية بل ما يهمها هو الإيمان والعائلة والدم والمعتقد ... وهذا ما يميز الشعوب عن بعضها ويدفعها للقتال وللموت. من أجل ذلك فإن صراع الحضارات سوف يحل محل الحرب الباردة كظاهرة مركزية في السياسة الدولية."[٤]

إن من سنن الحياة الصراع: الصراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل. والإسلام أمر بمصارعة الباطل في النفس الإنسانية وفي داخل المجتمع المسلم. كما أمر بمصارعة الباطل في معاقله وهي مجتمعات الشرك والكفر. "كان الإسلام ديناً زاحفاً يهاجم الجاهلية في معاقلها، وكانت ثقافته ثقافة زاحفة أيضاً ، وقد كان تأثير الإسلام وثقافته في العالم كله تأثيراً كبيراً. وكان هم كثير من الأمم كاليهودية والنصرانية والمجوسية حماية مجتمعاتهم من هذا الدين الآسر الزاحف ، ثم حاولوا مهاجمة الإسلام ... ولكن المسلمين ردوهم على أعقابهم في الحروب الصليبية. "[٥] وساد حكم الكنيسة في الغرب وكان رجال الدين النصراني يمارسون هيمنة على المجتمعات النصرانية باسم الدين. والملاحظ أن الثقافة الغربية أهملت الروح ... أخذت تناصب الإسلام العداء والكراهية والحقد . وبدأ الغربيون يسخرون من الإسلام بشتى الطرق واستغلوا المنظمات العالمية لحرب الإسلام.

إن الحقد والكراهية هي التي توجّه العالم الغربي الذي يخشى أن يتجمع المسلمون على الإسلام فيعود المارد الذي كان يقف في وجه مطامعهم . فلذلك يحاربون الإسلام بكل سبيل . ولذلك عندما انتصر الصليبيون على تركيا في الحرب العالمية الأولى أشترط الغرب أربعة شروط على الخلافة وهي شروط (كرزون) وهي : أن تقطع تركيا علاقتها بالإسلام ؛ أن تلغى الخلافة ؛ أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم أنصارها على الخلافة ؛ وأن تختار تركيا لنفسها دستوراً مدنياً بدلاً من الدستور العثماني المستمد من الشريعة الإسلامية. [٦]

إذن هدف الغرب من خلال هذه الشروط – على آخر معاقل الخلافة الإسلامية – 'علمنة' الدولة الإسلامية . ولتحقيق ذلك عمل حكام تركيا الموالون للغرب على تغيير الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ، ومنعوا الكتابة بالعربية ، ومنعوا الآذان وألزموا الشعب بلبس القبعة الأوربية . وفي بقية الدول الإسلامية أقصى الحكام الشريعة الإسلامية وتبنوا قوانين وضعية وانتشر الفساد وغاب الدين عن الدولة فأصبح مَّد الثقافة الغربية طاغياً ومن آثاره:"عزل الإسلام عن قيادة المجتمعات الإسلامية ؛ والتمزق الثقافي والافتتان بالحضارة المادية الغربية ؛ وفقدان الذات وضياع معالم الشخصية الإسلامية ، وانتشار الإلحاد في صفوف المسلمين؛ والفهم الخاطئ للإسلام ..." [٧]

واتخذ الغرب وسائل عديدة في الغزو الفكري والثقافي للعالم الإسلامي ومن ذلك ادعاء الغرب بعالمية ثقافته وهي دعوة تبطن في جوهرها سيادة الثقافة الغربية ، وصهر الثقافات الإسلامية في بوتقة الثقافة الأوربية ، والادعاء بأن التمدن والتحضر هو تبني نمط الحياة التي يعيشها العالم الغربي. كذلك كان من وسائل الغزو " إفساد التعليم الديني وتكريه المسلمين بالإسلام بطرق مختلفة مثل تهميش معلم الدين الإسلامي وتقليل حصص الدين وأرسلوا الطلبة النابهين للدراسة بالغرب، وجعل لغة التدريس هي اللغة الإنجليزية ، وفتحوا المدارس التبشيرية وحاولوا تنصير المسلمين، ونشطت حركات الاستشراق. كما زرعوا النزعة القومية في العالم العربي فنادى العرب بالقومية العربية والأتراك بالتركية الطورانية، والأكراد بالكردية وبذلك تفسخت عرى الرابطة الإسلامية.'' [٨] ومن وسائل الغرب للغزو والاختراق إفساد المرأة فدعوها للسفور والتبرج بزعم التحضر واستغل الغرب في ذلك وسائل الإعلام لتشويه الإسلام ونشر ثقافة الغرب في العالم العربي الإسلامي. واستهدف الغرب بالغزو الفكري " نقل المسلمين من قيم فكرهم

وعقائدهم وارتباطاتهم النفسية والروحية والاجتماعية إلى عقائد الغرب وفكره وقيمه." [٩] وهو ما أطلق عليه التغريب (westernization) .

إن الهدف هو تغيير العقلية والنفسية الإسلامية وتهيأتها للتغريب والتنصير والتبعية الكاملة للغرب بعد طمس هويتها وتغيير الشخصية الإسلامية . غير أن أكثر وسائل الغزو تأثيراً في الماضي وأمتد تأثيره في الحاضر هو الاستشراق .

حول تعريف كلمة الاستشراق يقول المستشرق الألماني (البرت ديتريش): "إن كلمة مستشرق هي كلمة حديثة تعني ذلك الباحث الذي يسعى إلى دراسة الشرق وتفهمه ، ولكي يتسنى له ذلك يتوجب عليه دراسة اللغات الشرقية وإتقانها." [١٠]

ويقول رودي باريت أن بداية الدراسات العربية والإسلامية في أوربا ترجع إلى القرن الثاني عشر .ففي عام ١١٤٣ تمت ترجمة القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب (بيتروس فينير بيليس) رئيس دير كلوني وكان ذلك على أرض أسبانية. وفي تلك الفترة كذلك وضع أول قاموس عربي لاتيني .[١١]

ولاشك في أن الاستعمار الأوربي استفاد كثيراً من حركة الإستشراق في التعرف على واقع العالم الإسلامي وعلى رسالة الإسلام وتاريخ المسلمين وهذا ساعد على اكتشاف نقاط الضعف ومراكز القوة وعلى الوعي التاريخي.[١٢]

لقد تعرض العالم الإسلامي لحركة استعمارية ضخمة ومنظمة منذ القرن الحادي عشر حيث بدأت الحملات الصليبية في عام ١٠٩٥م وتواصلت ما يقارب ١٥٠ عاماً . وقد أعلن هذه الحرب البابا ومجلس الكنيسة تحت شعار تحرير بيت المقدس من المسلمين . ثم جاءت مرحلة تالية من الغزو الاستعماري للعالم الإسلامي بواسطة المغول (وهم من قبيلة التتر) في جنوبي سيبيريا بقيادة جنكيز خان . ويقال أن الصليبين قد تحالفوا مع المغول وشجعوهم على غزو ومحاربة العالم الإسلامي وتدمير الحضارة الإسلامية. فقاد جنكيز خان جيش يزيد على (٧٠٠٠٠) مقاتل فبدأ بالصين ثم تركستان حتى وصل إلى عاصمة الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨م ودمرها تدميراً كلياً وقتلوا (٨٠٠,٠٠٠) إنساناً . ثم تحركوا في عام ١٤٠٠م إلى سوريا وفعلوا فيها ما يقشعر له البدن. ودمروا الحضارة الإسلامية وفقدت الأمة حضارتها وفقدت

الثقة في نفسها كما فقدت ثروتها العلمية والأدبية .[١٣] ثم استمرت الحركة الاستعمارية تجتاح العالم الإسلامي عبر القرون.

ومن خلال الإستشراق ترك الاستعمار – بعد ذهابه – مؤسساته وتلامذته ينشرون أفكاره ويحافظون على ثقافته حية وسط العرب المسلمين. "إن أعظم ما اهتم به المستشرقون في دراساتهم من الموضوعات، موضوع الشريعة الإسلامية ، ويرجع ذلك إلى أن شبهاتهم التي نشروها– عن طريق التعليم – تدور حول فصل الدين عن الحياة، وإضعاف سلطانه في النفوس. " [١٤] وتحاول الدراسات الاستشراقية الحديثة التركيز على "أهمية القوانين الوضعية وتطبيقها على المسلمين بدلاً من شريعة القرآن ..." [١٥] والاستشراق وفر للغرب كل ما يحتاج أن يعرفه عن الشرق وبذلك مهد لحركات التبشير والاستعمار ثم الغزو الثقافي والفكري.

إذن ارتبطت ظاهرة الغزو الثقافي في الماضي بالاستعمار وحركات التبشير والاستشراق . أما اليوم – في عصر المعلوماتية (Informatique) وتقنية الاتصالات الفضائية الحديثة وفي عصر العولمة والإنترنت ، أصبح للغزو آليات جديدة أكثر فاعليه ، وأساليب حديثة أكثر تأثيراً . وهذا يعني أن الأمة الإسلامية موعودة بتحديات جديدة لحضارتها وأزمات عنيفة لثقافتها ومهددات خطيرة لهويتها. ويحدث الغزو الفكري والثقافي في وجود ضعف في الطرف الثاني (مسرح الغزو) . فوجود غزو ثقافي على الوطن العربي يعني وجود ثغرات وجوانب ضعف يتم من خلالها ذلك الغزو . والمعروف أن الأمة العربية عاشت أزمة وجود ، فقد واجهت تحديات وضغوط متواصلة ومستمرة .. وكانت وباستمرار عرضة لخرق ثوابتها المتصلة بالوجود القومي التاريخي ، وهذا الخرق لا يصدر عن النخبة السياسية وحسب وإنما كذلك عن النخبة الثقافية.

أن نقد هذه النخبة يهدف بدرجة رئيسية إلى إظهار وكشف الحقيقة القائلة" بأن نقطة ضعف كل أمة من الأمم ومصدر قوتها أيضاً تكمن في استمرارها في حيز الثقافة". كان هيجل يقول إن الأمة تكون عظيمة أو هامشية بعظمة أو هامشية مثقفيها ومبدعيها ، والأمر ذاته ينطبق علينا نحن العرب المسلمين.[١٦]

وهنالك من المحللين من يذهب إلى القول بأن التصادم بين الهويات الحضارية أوضح ما يكون بين الغرب والإسلام . وهذا أمر يتصل جزئياً بالتعارض بين القيم العلمانية والقيم الدينية

، وجزئياً بالغيرة من قوة الغرب ؛ وجزئياً بالسخط الناشئ عن السيطرة الغربية على الهياكل السياسية التي ظهرت في الشرق الأوسط في عصر ما بعد الاستعمار ، وجزئياً بالمرارة والمهانة الناشئين عن المقارنة بين إنجازات الحضارتين الإسلامية والغربية خلال القرنين الماضيين. [١٧] إضافة إلي ذلك الجوار الجغرافي والعداء التاريخي وكذلك الدور السياسي الصريح الذي يلعبه الإسلام في حياة أتباعه. "ويزيد من أهمية هذا التنافس مع الغرب أن الإسلام نفسه ما زال هوية جماعية قوية آخذة في الانتشار. " [١٨]

والملاحظ أن مثل هذه الحرب الحضارية قد بدأت بالفعل ويمكن أن نلمس ذلك من الحملة الإعلامية الضخمة التي يقودها الغرب ضد الإسلام من جهة ، وفي الصورة الحاقدة الساخرة التي ترسمها وسائل الإعلام الغربية لـ (العرب) و(مالك النفط) خصوصاً من جهة أخرى، وفي ربط الإرهاب الدولي بالإسلام والعرب. أضف إلى ذلك الإجراءات المادية التي تجسم وتجسد هذه (الحرب الحضارية) الحقيقية التي تشن على العالم الثالث عموماً ، وعلى العرب والمسلمين خصوصاً ، والتي تتمثل في الحظر المفروض على نقل التقانة إليهم بينما التدفق الإعلامي من الشمال إلى الجنوب متاحاً بصورة مطلقة . وكذلك تتمثل الحرب الحضارة الباردة في "استنزاف مواردهم الطبيعية ، ومنعهم من امتلاك الأسلحة المتطورة وتكييف أذواقهم وأنماط سلوكهم بواسطة الغزو الإعلامي ، وإرهاقهم بالسلع الاستهلاكية التي تمتص ما قد يحققونه من فائض الإنتاج [١٩]".

وفي الواقع يمكن الحديث عن أربعة عوامل في الوضع الثقافي الدولي تهدد الثقافة العربية الإسلامية بالاختراق، هذه العوامل هي: الهيمنة الثقافية التي يمارسها الغرب على الصعيد العالمي، التناقض بين عالمية الاقتصاد والسياسة وبين التقوقع داخل الثقافات الفرعية، وانسحاب الصراع الآيدولوجي من الساحة وحلول الاختراق الثقافي محله ، ثم الحرب الباردة الحضارية ضد الإسلام. والاختراق هو اختراق للهوية أساساً. ولحماية الهوية من هذا الاختراق الثقافي يقترح بعض المفكرين ضرورة تحقيق الاستقلال الثقافي، والذي لا يعني العزلة والانغلاق عن الثقافات الأخرى وإنما يعني عدم التبعية لهذه الثقافات ، أي تتفاعل الثقافة العربية مع الثقافات الأخرى دون أن تكون خاضعة أو تابعة لها تبعية ثقافية تنال من الهوية الوطنية والقومية . والتبعية

الثقافية والاختراق الثقافي ليس خطراً على الهوية وحدها بل إنه يستهدف من وراء الهيمنة الثقافية فرض التبعية الاقتصادية والسياسية أيضاً. [٢٠]

إذن نحن أمام أمن ثقافي مهدد. غير أن عملية تحصين هذا الأمن الثقافي ينبغي ألا يعني موقفاً نكوصي من الانفتاح الثقافي؛ فالفارق واضح وكبير بين الغزو الثقافي وبين الانفتاح أو التثاقف. ولقد بات هذا الغزو يفرض نفسه اليوم من خلال عملية الاختراق الإعلامي الشامل الذي أطاح بالسيادة الثقافية التقليدية للمجتمعات إلي الحد الذي أمتنع عن أي رد ممكن. [٢١] وهنا يتضاعف دور المثقف العربي في حماية السيادة الثقافية وعلى الدولة أن توفر له المناخ الديمقراطي والبنية التحتية للإطلاع بهذا الدور.

ومن واجب المثقف والسياسي والمبدع والكاتب في الوطن العربي أن يقاوم أي مساع أو محاولات من السلطة لتقليص دوره أو إضعافه لأن دور المثقف لا ينتظر سبقاً أو تصريحاً أو موافقة من السلطات والحكومات وإنما يفرض نفسه فرضاً . وبالطبع ربما يكلف ذلك المثقف الكثير من المتاعب والأعباء والمعارك والتضحيات وهذا طبيعي في عالمنا العربي . وعلى المثقف العربي المسلم ألا ينسحب من المعركة لأن تلك هي رسالته في الحياة وألا يستسلم للضغوط التي تستهدف تهميشه واستبعاده من المشاركة بفاعلية في الحياة السياسية والثقافية ، من جانب ، وأن يتصدى لرياح الغزو الثقافي ومحاولات الاستلاب الفكري من جانب آخر.

أزمة المثقف العربي

الأزمة هي حالة طارئة يمر بها المجتمع الانتقالي مثل الانتقال من التقليد إلى الحداثة. وارتبطت أزمة المجتمعات العربية المسلمة بحالة التغريب المفروضة من الغرب على أساس أن الحضارة الأوربية هي الأكثر تقدماً وحداثة، وأن ما عداها يسير في مراحل مختلفة عنها[٢٢] ؛ ومن ثم لا بد من أن يسلك الآخرون الطريق نفسه، ويسيروا صوب الهدف نفسه.

ومنذ أن بدأت الحركة الاستعمارية الحديثة في عام ١٥٠٠ بدأت المجتمعات المتخلفة تعيش في حالة أزمة – أزمة بناء الدولة وما يتفرع منها من أزمات على مختلف المستويات وفي مختلف الصعد. وقد حدد لوسيان باي (Lucian Pye) أزمات ست: أزمة الهوية ، وأزمة الشرعية، وأزمة التغلغل، وأزمة المشاركة ، وأزمة التكامل ، وأزمة التوزيع. [٢٣]

وبسبب الإستشراق ومحاولات التغريب ظهرت أزمة ثقافية وفكرية في المجتمع المسلم ، حيث تصادم القديم مع الجديد واضطربت الرؤى والمفاهيم . وقد كان للاستشراق أثر كبير في خلق أزمة المثقفين المحدثين في العالم الإسلامي وذلك " من خلال تطبيق مناهجه في مدارس وجامعات العالم الإسلامي ومؤسساته الثقافية الإسلامية ، ومن خلال تلمذة عشرات الألوف من الطلبة مباشرة على أيدي المستشرقين في الجامعات الغربية ، ومن خلال الاحتكاك الثقافي بين العالم الإسلامي والمجتمعات الغربية." [٢٤]

وقد أدى المنهج الإستشراقي غير الموضوعي إلى تشويه التراث الثقافي والحضاري للأمة الإسلامية . ولدوافع دينية وسياسية أتجه المستشرقون إلى "تشويه حقيقة الفلسفة الإسلامية ، وإنكار أي دور للعقل المسلم في تطوير الفكر الفلسفي... من خلال إنكار دور القرآن في نهضة الفلسفة والثقافة الإسلامية وكأنها انعكاسا أو محاكاة للفلسفة اليونانية." [٢٥] بينما الإسلام أشمل وأسمى من الفلسفة لأن المعرفة الإسلامية مصدرها الوحي بينما الفلسفة هي من اجتهاد العقل البشري وهي عاجزة عن إدراك الحقيقة الكاملة.

وللخروج من هذه الحالة لابد من عملية تأصيلية تستلهم من التراث الإسلامي منطلقات الفلسفة الإسلامية القويمة وتبرز أهمية التراث هنا باعتباره نتاج المسيرة الحضارية للأمة من علوم ومعارف ومؤسسات وفنون وقيم وفكر ولكن ينبغي التعامل مع التراث بعقل ناقد لتمييز الحي منه مما كان دوره مؤقتاً . وهو يحتاج إلى تحليل وتقييم وإلي نظرة جديدة . نظرة تأصيلية تنطلق من التصور الإسلامي مستصحبة مقتضيات العصر الحديث وتحدياته.

هذه النظرة التأصيلية ضرورة لأزمة لمواجهة تحدي الغزو الثقافي ولمعالجة الأزمة النفسية الناتجة من حالة الانبهار والصدمة الحضارية للعالم الإسلامي. والموقف من التراث هنا لا يعني الاحتماء بالتاريخ أو الاستغراق في عملية الفخر والاعتزاز بالآباء والأجداد ودورهم التاريخي وإسهاماتهم المبدعة في مجال الحضارة والثقافة والعلوم بل يعني " الارتكاز إلى الماضي والتزود منه لتغيير الواقع وصناعة المستقبل." [٢٦] إن جزءاً من عوامل الأزمة يتمثل في الخلط المفهومي حيث جعلنا مفهوم التراث أو الأصالة مقابل مفهوم المعاصرة ، بينما "الحقيقة البادهة أن لا معاصرة دون أصالة ، ولا أصالة صادقة دون معاصرة فاعل." [٢٧]

ومن عوامل الأزمة الثقافية نجد الازدواجية الثقافية التي نشأت من حركات التحديث منذ القرن التاسع عشر إذ أدخلنا التعليم الحديث وأهملنا التعليم الإسلامي الموروث. لذا تكوَّن خطان من التعليم ونوعان من النخبة [٢٨] : نخبة تنحاز إلى التراث وتسمى أحياناً تقليدية (traditional elite) ونخبة تنحاز إلي التحديث وتسمى النخبة الحديثة (modernized). وضاعفت هذه الازدواجية من أزمة الثقافة العربية – الإسلامية فضلاً عن المكونات الأخرى للأزمة مثل الإستشراق والاستعمار وإهمال الدين كمنهج حياة. كما أهملنا اللغة العربية – لغة القرآن وحامل التراث الإسلامي. وهناك من يرى أن اتخاذ اللغة العربية " وسيطاً للخطاب المعرفي يمثل أهم دعائم التأصيل، وهو ما نسميه التعريب." [٢٩]

ومع الاعتراف بأن أحد عوامل الأزمة الثقافية التي يعيشها المجتمع المسلم هي الغزو الثقافي الغربي أو الحداثة والتغريب ، لا بد من الاستدراك بأن الثقافة الغربية هي نفسها مأزومة. فهي تعاني من "تآكل المبادئ العلوية والقيمية للعقل الغربي والثقافة الحداثية ، ونتيجة مباشرة لجهود حركة العلمنة الغربية التي أدت إلى القضاء على دوافع الالتزام الأخلاقي وتغييب المسؤولية الكلية للإنسان باستبعاد مفهومي الله واليوم الآخر ." [٣٠] وبذات العيوب انتقل تأثيرها للنخبة العربية المسلمة. وهذه الثقافة الغربية المهترئة تعيش أزمة عقلانية نتيجة " لتغييب المبادئ العقلية العلوية والقيمية ... ولم تعد العقلنة .. الثقافية في التجربة الغربية متكاملة، بل أضحت مجموعة من العمليات المستقلة المتغايرة. فالعقلنة في الدائرة الاقتصادية أو القانونية أو الإدارية تسير في اتجاهات مختلفة وفق مبادئ مختلفة ، بحيث فقدت التصورات الدينية والمبادئ الأخلاقية قدراتها التوحيدية ، وعجزت بالتالي عن تزويد الخبرة الإنسانية الحديثة بمعنى شامل أو غاية متكاملة." [٣١] إن مظاهر الانحلال الخلقي و التفكك الاجتماعي في الغرب ليست سوى نتيجة لازمة " لتفتت الوعي الحداثي وانقسامه لدوائر قيميه مستقلة لا يربطها رابط ، وفقدان الحياة الإنسانية لأي معنى كلي شامل وافتقارها لأي هدف متعال عن وجودها الحسبي ورغبتها الآنية، وبالتالي استسلامها للنزعات العدمية والبهيمية ، واستغراقها في الاغتراب الروحي والنفسي." [٣٢]

بالإضافة إلى الغزو الثقافي الخارجي يعاني المثقف العربي المسلم من أزمة داخليه أخرى وهي تسلط السياسة على الثقافة أو تهميش السياسة للثقافة .ولكي يقوم المثقف المسلم

بعملية التأصيل ينبغي أن نحرره من هيمنة السياسة وطغيانها. وإذا غابت الحرية انسحب المثقف من الحياة العامة . سواء كان المثقف متديناً أو علمانياً فهو يحقق غياباً لصالح السياسي . فصاحب الثقافة الإسلامية والتراثية يعيش زمان أمجاد وفتوحات وعدالة لا يعود ، وصاحب الثقافة العلمانية والغربية يعيش زماناً من التقدم والرفاه والتحرر لن يأتي ؛ فيما يستنزف السياسي اللحظة الراهنة بأنانية وانتهازية مختصراً المجتمع بذاته ولذاته. [٣٣] وأمام غياب المثقف وانقطاعه عن السياسة يصبح ملحاً إحياء مفهوم (المثقف العضوي) الملتصق بهموم المجتمع الملتزم بقضاياه.

وتمثل أزمة المثقف والثقافة إحدى الأزمات المتعددة التي يعيشها المجتمع العربي المسلم حتى أن الخطاب العربي تميز في السنوات الأخيرة بالحديث عن وجود أزمة في البنيان العربي ولا يخلو أي خطاب سياسي أو اقتصادي اجتماعي أو أدبي من كلمة (أزمة). ولكن يرى البعض أن الحديث عن وجود أزمة هو ظاهرة صحية وهو اعتراف بحالة الواقع ويمثل بداية للتفكير الجاد لمخاطبة الأزمة في محاولة لحلها. وهناك شبه إجماع على أن التجربة العربية شرقاً وغرباً قد "بان عجزها في مسايرة تطورات العصر وتعرضت لهزائم متلاحقة ولم تستطع أن تصمد أمام تحديات العصر ، وظل الفكر الناتج عنها يجتر أفكار الإصلاح والثورة والتنمية والحداثة والأصالة والتراث دون فعالية ودون أن يتمكن من أن يكون فاعلاً في مجريات السياسة اليومية مما يقوده إلي مجاراة واقع الإهتراء والتدهور." [٣٤]

إن الحديث عن أزمة المثقف العربي يرتبط بالحديث عن العقل العربي المعاصر وهو إلى حد كبير امتداد " للعقل الذي أفرزته ثقافة الانحطاط في القرون المتأخرة ، ونتاج جهود المؤسسات التعليمية و التثقيفية التي ارتأت أن تعيد بناء العقل العربي المعاصر عبر عمليات استرجاع غير منهجي للتراث العربي التليد أو استعارة غير نقدية للثقافة الغربية السائدة . إنه العقل الذي "عجز عن المحافظة على العلو السامق الذي رفعه إليه القرآن الكريم وهدي النبوة ، فتخلى عن القيم السامية .. وتخلى هو بعد ذلك عن مهمة البحث المنهجي لينكفئ أخيراً على ذاته." [٣٥] أو يتبين النتاج الفكري و المحتوى القيمي لثقافات تشكلت خارج ظروفه وبيئته وعقيدته ومرجعيته.

كذلك تكمن أزمة المثقفين العرب – المسلمين اليوم في أن كثيراً منهم يخلط بين المعاصرة والاستلاب أو الغزو الثقافي .فأصبحنا نستسلم دون وعي لعمليات التغريب المختلفة ، باعتبار أن ذلك "معاصرة" وهي خدعة من الغرب الذي يماثل بين المعاصرة وقيمه (أي قيم الغرب) ، وما غيرها (كالثقافة الإسلامية) خارج إطار المعاصرة. وبذلك تحول " العصر من عصر زماني إلي قيمة ثقافية وحضارية يتبلور عليها مفهوم الأمة". [٣٦] وهنا يرتبط مفهوم تأصيل الثقافة ارتباطاً وثيقاً بالهوية . وقد أستغل الفكر الغربي مصطلح المعاصرة بهذا الفهم كأداة لتفتيت هوية العالم الإسلامي بين معاصرين ورجعيين متخلفين ، وصارت " المعاصرة" ''بديلاً مرجعياً للأصل الذي قامت عليه الجماعة المسلمة''. [٣٧] ويرجع هذا الاستسلام الثقافي إلي أن الهزيمة العسكرية للعرب أمام الغرب أدت إلي هزيمة فكرية بحيث أصبح الفكر الغربي يمثل إطاراً مرجعياً جديداً للمثقف العربي/المسلم.

وتظهر أزمتنا الحقيقة في عدم فهمنا لواقعنا وهو ما يبعدنا عن مفهومية الأزمة في سياقها الحضاري ، "ماذا حدث بعد إشاعة الأفكار الإصلاحية للطهطاوي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني وخير الدين التونسي وقاسم أمين وطه حسين وغيرهم؟ وهل أحدثت آراؤهم تفاعلات فيما بعد؟ هل إستطاعت أن تخلق فكراً تجديدياً ، ومدارس ومذاهب تؤثر في الأجيال اللاحقة؟" [٣٨] يلاحظ البعض أن هذا الفكر وعلى الرغم من قيمته التنويرية ومساهمته في النهضة العربية إلا أنه انطفأ بسرعة ، ربما لظروف خارجية ضاغطة مثل نشاط حركة التبشير والاستعمار والإستشراق . أو للظروف الداخلية المتمثلة في عقلية الاحتكار – احتكار الأفكار واحتكار السلطة وما ينتج عن ذلك من إقصاء للطاقات الوطنية . وهنا تمكن عمق أزمة الواقع العربي . لذلك لجأت فئات عريضة من المثقفين إلي خطاب التراث – وإلى الخطاب الديني لتجد فيه عزاءها الوحيد بل بالأحرى هو مخرجها الوحيد . وهناك من يذهب إلي القول بأن ما يعاني منه الفكر العربي ومنذ عصر النهضة هو أنه يعمل ويمارس في غياب مؤسسات المجتمع المدني وغياب الدولة الحديثة مما يغيِّب كل أوجه الممارسة السياسية على قاعدة علم سياسي متعارف عليه مما يجعل الأحكام قائمة على المزاج ، وبعيدة عن المعرفة العقلانية . وهنا يكمن الفارق المعرفي ما بيننا وبين أوربا ، الدولة المتجددة التي استطاعت أن تؤسس معرفة علمية

نمت بداخلها أيديولوجيات متنوعة ومتفاوتة وأحياناً إلي حد التناقض ، دون أن تشكل اهتزازاً أو مساساً بسيادة الدولة وسيادة الفرد وسيادة القانون.[٣٩]

ومصدر آخر من مصادر أزمة الثقافة العربية هو الثنائية أو الازدواجية في الثقافة الوطنية. فهناك ثقافة الجماهير وثقافة النخبة، وثنائية في داخل الثقافة بين جانبها المادي والروحي، وثنائية بين التقليدي والعصري أو ثقافة البادية وثقافة المدينة – حيث تحتفظ ثقافة البدو بطابعها التقليدي الوطني المنحدر من القرون الوسطى، أما الثانية فهي ثقافة المدينة التي قلدت الثقافة الغربية في مختلف مجالات الحياة المادية والمعنوية حيث أصبحت هناك هوة كبيرة تفصل بين الثقافتين. ومن هنا جاء الصراع داخل الثقافة العربية المسلمة.[٤٠] ويلزمنا الأمر توحيد الثقافتين بربطهما بالثقافة الإسلامية. ولم تجد الثقافة الملتزمة (من خلال القصيدة والأغنية والمسرح) المناخ الملائم للنجاح. وأصيب معظم أصحابها باليأس وسادت الثقافة والتي أسهمت وسائل الإعلام في تكريسها. كذلك يواجه المثقف في الوطن العربي خيارات صعبة، وأصعب هذه الخيارات هي أن يتعاون مع دولة معزولة عن المجتمع المدني وعن عقيدته ، ودولة متسلطة ولكنها تعاني من خوف دائم لأن هوة كبيرة تفصل بينها وبين الناس ، وبالتالي هي ناقصة الشرعية وتطلب من المثقفين أن يتحولوا إلى متعاونين ومؤيدين ليبرروا انحرافها.[٤١] إن على المثقف المسلم في العالم العربي أن يكون مستقلاً يملك حساً نقدياً واعياً واستقلالاً فكرياً (يتجاوز الأيديولوجيات) ، وهي شروط أساسية لمن يريد أن يحقق حلماً ثقافياً ذا صبغة ثورية تمردية [٤٢] يسعى لاسترداد ثقافته الأصلية.

ويلاحظ المفكر الباكستاني إقبال أحمد أن مثقفي العالم الثالث غير منظمين على الإطلاق ولا توجد بنية تنظيمية أو نشاطات مشتركة تجمعهم فكل منهم يعيش في عزلة عن الآخر ولا يهتم إلا بشأنه الخاص . المشكلة إنهم في غالبيتهم يساريون ، واليسار في العالم النامي ليس له تعريف محدد أو واضح ، إنما هو مجموعة خطوط تصل في اختلافاتها الاصطناعية إلي حد التنافر والتناحر، لأن كل خط تحول إلي مذهب يهدر أصحابه الوقت والجهد في الدفاع عنه دون الاهتمام بالبحث عن الحقيقة . إن أحد السموم المريعة التي يعاني منها مثقفونا اليوم هو الانقسام اللامتناهي داخل الفئة الواحدة إضافة إليه الاقتراب والالتصاق بالسلطة. [٨٥] لذلك أصبحت السلطة العربية لا ترى في المثقف العربي أكثر من ميكرفون ينقل

فكرها ويبرر أخطاءها . والمثقف لم يعد مؤسسة بل فرد يعبر عن نفسه وعن فكره في الصحف والكتب دون أن يفترض أنه يخاطب الجماهير أو أنه ينتظر منها ردة فعل . ويبدو أن الدولة العربية لا تريد للمثقف أن يكون أكثر من ما هو فيه : أن يبقى بعيداً ومنزوياً حتى لا يسبب لها القلاقل بفكره وأطروحته التي قد لا تؤيد السلطة ولا تدعم توجهها.

كذلك تعاني الثقافة العربية من أزمة انسداد الآفاق بحيث أصبحت لا تري أكثر من تلك القوالب الجاهزة . وهو تراجع نشأ بتراجع الحامل أو الوعاء الاجتماعي للثقافة العربية حيث كانت الطبقة الوسطى هي حاملة الثقافة واستطاعت هذه الفئة الوسطى في ظل الازدهار أن تكسب خصوصية مركزة . لكن ما حدث مؤخر ، هو أن الثقافة العربية تمت إعادة بنائها وفق احتياجات الإمبريالية ، بعد أن كانت الفئات الوسطى قد مارست دوراً مميزاً على الصعيد الثقافي والسياسي . وهي حالة تعيشها معظم البلدان العربية وبلدان الدول النامية حيث أصيبت الثقافة بتصدع مع تصدع حاملها الاجتماعي – الفئات الوسطى.[٤٣] وقد امتد تأثيرها للمجتمع ككل بحكم تأثير الطبقة الوسطى في المجتمعات الانتقالية.

وانعكس ذلك أيضاً على مستوي المثقف العربي الفرد الذي أصبح يعيش حالة من الفقر والحرمان والبؤس . وافتقد المثقف المعاصر الجذور الاجتماعية الراسخة النابعة من حاجات طبقات أو فئات اجتماعية قادرة أن تفرض إشراكه في صناعة القرار . وبسبب ذلك انسحبت شرائح واسعة من المثقفين من الاشتغال بقضايا المجتمع والسياسة ، وتحول المثقف إلي مثقف تقني يعمل بمهنته أو يكتفي بوصف الظواهر وصفاً وضيعاً دون الانفعال بها أو لعب دور سياسي أو اجتماعي هو في صميم وظيفته كمثقف.[٤٤] ويعتقد أحد الكتاب العرب (برهان غليون) أن دور المثقف الطليعي والثوري والرسالي قد انتهي ، بينما ينحي آخرون بالملائمة على المثقف نفسه باعتبار أن من واجبه التصدي لا الهروب من الواقع أو الابتعاد عن دوره وإذا أصَّلنا لحركة الفكر لوجدنا أن الإسلام يعطي ذلك البعد الرسالي المفقود أهمية في دور المثقف الطليعي.

من المؤسف أن الثقافة العربية الإسلامية التي وجدت نفسها تعيش في أزمة أخذت تبحث عن حلول من الخارج . (تبحث عن حامل جديد تتم إعادة بنائه) . وهذه المسألة تتعلق بجدلية السلطة والثقافة إذ عندما وصلت الفئات الوسطى إلى السلطة تركت مشروعها الثقافي الذي ظلت تدافع عنه وركزت على مشروعها السياسي وفقدت الرؤية السياسية، والنضج الثقافي،

وقد ساهمت السلطة السياسية في المجتمع العربي في تجزئة المشروع الثقافي وبذلك أصبحنا أمام بنيات متعددة منها ما يسمى بالثقافة السلطوية ، ومنها ما يسمى بالثقافة الفئوية والثقافة الشعبية.[٤٥]

كذلك هنالك إشكالية التجزئة على مستوي الثقافة العربية. وهذه التجزئة تمثل ثغرة أخرى ظهرت بصورة جلية مع تنامي القطرية والإقليمية وشيوع ثقافة التفتت والتشرذم وحالة كهذه تحول دون بناء إدراك عربي سليم يستنفر طاقات الأمة ويستثير همتها ، وبدلاً من أن نتطلع إلي مستقبل مشرف للأمة فإننا نصبح أسرى مستنفع القطرية والجهوية فيتخلخل لدينا الانتماء وتغدو أقطارنا معرضة للضياع وفريسة سهلة للغير.[٤٦]

هذا التشرذم الثقافي وصفه الكاتب فهمي هويدي بأنه (حروب أهلية ثقافية) بسبب تعدد المذاهب والمدارس الفكرية والفقهية فهناك الشيعة والسنة والسلفية والمتصوفة والأصولية والتيار الإسلامي الحديث. وهذا التفتت الثقافي يضعف عملية التكامل الثقافي ويهز البناء الحضاري للأمة العربية الإسلامية ويجعلها سهلة الاختراق الثقافي وفريسة للغزو الفكري ؛ "ولا نبالغ إذا قلنا أن قيم مجتمعاتنا ونمط حياتنا يمكن أن تتأثر سلباً إذا لم نعزز حصانتنا ودفاعاتنا بحيث تتمكن تلك المجتمعات من التعامل مع الهجمة الثقافية الغربية بثبات ، ودون أن يختل توازنها."[٤٧]

دور المثقف العربي في المجتمع:

وصف أحد الكتاب العرب المثقفين المسلمين بأنهم أصبحوا "ركاماً بشرياً فاقداً للوعي عاجزاً عن إدراك ذاته غير قادر على الحركة إلاّ من خلال توجيهات خارجية بعد أن فقد القدرة على التفكير الذاتي."[٤٨]

كما وصف كاتب آخر حال المثقفين بأن أغلبهم يمارس حركات بلهاء ، حيث يقفزون من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، ومن الديمقراطية إلى الدكتاتورية، ومن الدكتاتورية إلى الديمقراطية، ومن الرأسمالية إلى الإشتراكية ومن الإشتراكية إلى الرأسمالية، ومن التبعية الأجنبية إلى الاستقلال الوطني ،ومن الاستقلال الوطني إلى التبعية، ومن الشعوبية والقطرية إلى القومية، ومن القومية إلى الشرق أوسطية تبعاً لإختلاف الأنظمة والحكومات والمصالح والمنافع الشخصية على كل صعيد. [٤٩] إن هذا الوضع الذي آل إليه

المثقف العربي المسلم أفرز تشوهات انعكس على واقعنا الاجتماعي والسياسي والفكري وفتح الباب على مصراعيه لتيار الغزو الفكري ومهد لعمليات تفكيك البناء الأيديولوجي في العالم الإسلامي فتحولت أصوله إلى جزئيات لا تقيم تصوراً متكاملاً؛ وأحدث شرخاً في العقل المسلم . وهذا يستدعي عملية تأصيلية تقوم بإعادة البناء وإعادة التماسك الأيديولوجي وتعيد صياغة العقل المسلم حتى تعود له القدرة على التصور الإسلامي المتكامل.

إن تحقيق العملية التأصيلية في المجال الثقافي تستلزم وجود المثقف المسلم الملتزم . والالتزام يقوم على الإيمان بالقضية وإدراك الرسالة والوعي بالدور والاستقلال الذاتي في الموقف والرؤية. حيث ينبغي أن يتحدد موقف المثقف بمعيار الحق والموضوعية وأن تنطلق رؤيته من التصور الإسلامي. إن توافر مثل هذه الخصائص في المثقف تشكل الأساس للنقلة التصورية الإعتقادية لنقل المثقف من تلك الحالة – حالة التسطيح الفكري والتقلب في المواقف وعدم الثبات على المبدأ لضعف العمل الديني وغياب البعد الرسالي وانعدام الالتزام الأخلاقي. لذلك لتأصيل الموقف نفسه ينبغي أن يكون المثقف تقياً ، لأن التقوى "هي الطاقة الفذة التي تشعل مصباح الضمير فيظل متألقاً متوهجاً حتى يغيب الإنسان في التراب مادام يشعر في كل عصب وجارحة وخلية أن الله يراقبه وهو يمارس هذا العمل أو ذاك. "[٥٠]؛ أو يتخذ هذا الموقف أو ذاك.

وإذا كان المجتمع العربي المسلم يعاني من أزمات ومشكلات فإن من أهم أسباب تلك الأزمات والمشكلات هو الجهل والتخلف من ناحية ، والانفصام عن الأصالة و التراث الإسلامي من ناحية أخرى ، فإن المثقف هو أهم أدوات استئصال الجهل ومحاربة التخلف . وهو أهم القنوات الفاعلة لضخ الوعي وغرس القيم الحضارية في الجماهير . وهو كجزء من النخبة من أقوى المؤثرات على الطبقة الحاكمة.

إن المثقف المطلوب هو من يتمثَّل قيم الإسلام وعناصر الثقافة الإسلامية وأنماط السلوك الرفيعة في المجتمع المسلم ، فيكون هو القدوة في القول والعمل ويقوم بوظيفة التنوير؛ وهو الذي يلعب دوراً تربوياً وتعبوياً. فهو الذي يستنهض الجماهير نحو التغيير، ويمثل نبراساً يهتدي به الشعب في مسيرته الحضارية . والمثقف بهذا الشمول يعول عليه لحمل لواء التغيير والتطور في المجتمع وهو الذي يعبر عن نبض الجماهير وحركة المجتمع وصيرورته. وبهذا الفهم ينبغي النظر لدور المثقف في المجتمع المسلم.

المثقف هو جزء من النخبة (Elite) وقادة الرأي – نخبة مؤثرة في المجتمع وليس نخبة بالمعني السلبي– "صفوة منعزلة عن الجماهير." بل أن ما يميزه هو الوعي وما يعطيه الوزن والقيمة في المجتمع هو درجة تفاعله مع الجماهير والتعبير عن آرائها وتطلعاتها . وبذلك التأثير وبتلك الفاعلية والتفاعل يستطيع المثقف أن يبني له مركزاً اجتماعياً مرموقاً . ويمكنه بحكم موقعه وهيبته في المجتمع أن يطرح أمام الجمهور آراء ينظر إليها باعتبارها نماذج يجب أن تحتذى وتحترم . ومن خلال وسائل الاتصال الجماهيري يستطيع المثقف وكجزء من قادة الرأي " أن يطرح أمام جماهير مجتمعه القيم والاتجاهات الجديدة ويساهم في تكوين صور قومية للمجتمعات الأخرى لدى الجماهير وفي صياغة القيم والتفضيلات والأهداف ليتبناها الآخرون.''[٥١]

ويتمتع المثقف بالقدرة على الإقناع والاستمالة والتحريض والتعبئة ، وهو يساهم في تشكيل الرأي العام. ولكن تتوقف مساهمة المثقفين هذه على " تماسكهم وموقف النخبة الحاكمة منهم ، واتجاهاتهم إزاء الحياة السياسية ، وقضايا المجتمع ، هذا فضلاً عن خلفياتهم المهنية ، والاجتماعية والتعليمية". [٥٢]

والمثقف قد يؤدي دوراً أساسياً في الحياة السياسية ويتولى عملية التنظير والتخطيط لحركات ثورية أو لبرامج وآيديولوجيات وشعارات ومبادئ تهدف لتطوير المجتمع . وهو لذلك لابد أن يعي دوره وطبيعة المرحلة التي يمر بها مجتمعه ليستوعب معطيات الواقع ويساهم في التحول وتوجيه التغيير حتى لا تستوعبه المتغيرات الداخلية أو يذوب في الأفكار الغازية . كما أن وضع المثقف يفرض عليه عدم التنكر لثقافته الوطنية وأن لا يقتلع نفسه من بيئته وما تمثله من توقعات وآراء وإتجاهات ، فالثقافة العصرية لا تلغي ثقافة الأجداد أو التراث . ولكن الملاحظ أن المثقف في العالم الثالث يخضع لعمليات تسييس بحكم واقع هذه المجتمعات التي تمر بفترة انتقالية ، هي فترة تحولات من التقليدية إلى الحداثة والعصرنة.

ولكي يؤدي المثقف دوره في المجتمع العربي المسلم نتوقع منه أن يكون ملتزماً بخدمة قضايا وطنه. " ويفترض في المثقفين أن يمثلوا القوة الاجتماعية الأساسية في المجتمع العربي المسلم المعنية بمقاومة الجهل والأمية والخرافة في الكيان الاجتماعي ، ونشر وتوزيع المعرفة والفكر في أوساط الناس ." [٥٣] وهو دور يجري إنجازه من خلال التكوين والتوعية لا من خلال

الهتافات والتعبئة الشعاراتية وغيرها من وسائل الاستنهاض السياسي التي تفتقر للمضمون الفكري أو البرنامج الثقافي الموضوعي.

وللمثقف العربي المسلم رسالة اجتماعية وحضارية – عقائدية ينبغي أن يتصدى لها بكل الوعي والمسؤولية وأن لا يتقاعس عن هذا التكليف التاريخي. والملاحظ أن الدور الذي يؤديه المثقف في الوطن العربي وسائر البلدان النامية في العالم ليس قوياً أو فاعلاً وتحده بعض المعوقات مثل عدم توافر النظام الديمقراطي وغياب مؤسسات المجتمع المدني . ومجتمعنا العربي في حاجة ملحة إلى المثقف المستقل المستنير. " والمثقف الحر غير الخاضع وغير التابع قد يسهم بآرائه النقدية إسهاماً كبيراً في تبيان الطريق السياسي والقومي الصحيح ، وفي تبيان الآثار الوخيمة التي تسببها بعض السياسات ، وفي ردع السياسيين عن القيام بمغامرات ، وفي تقليل احتمالات ارتكاب السياسيين للأخطاء، ومدى إصغاء السياسيين لأفكاره واستفادتهم من هذه الأفكار يتوقف على عوامل مختلفة منها: مدى الوزن الذي يعطيه السياسيون لهذه الأفكار ومدى تقديرهم لدور الثقافة والمثقفين؛"[٥٤] وكذلك عقلية السياسي ومدى وعيه بأهمية الأخذ بأفكار المثقفين . وفي هذا الإطار فإن الواقع السياسي للوطن العربي يكشف عن حاجة كبيرة للمثقف الملتزم ، المستقل والجريء لتوجيه النظام السياسي والمساهمة بآرائه في البناء الوطني وفي التوعية والتنوير. أن دور المثقف في الدولة وعلاقته بالسلطة يعتمد على نوع تأييد المثقف للسلطة وطبيعة السلطة ذاتها ، إذ يجب أن يكون موقفه متسما بالنزاهة والعقلانية والموضوعية بحيث لا ينبغي أن يمارس المثقف التنظير للسلطة بازدواجية – يبرز الإنجازات ويتجاهل الإخفاقات – فهناك فارق بين واعظ السلطان ومهرج السلطان. وكم بائسة السلطة التي ترحب بمن يكون عبءً عليها لا بمن يكون عوناً لها. [٥٥] وما أكثر الفئة الأولى في واقعنا العربي .

لذلك فان الحالة المثلى للعلاقة بين المثقف والسلطة هو أن تكون بينهما دوما مسافة ما ولا ضرر في أن تكون هناك جسور بينهما شريطة الاحتفاظ بالمسافة وان تضمن السلطة للمثقف حريته وكرامته وان يتصرف المثقف من واقع المسؤولية وبقصد الرؤية الواضحة والواعية للحاضر والمستقبل. إن جوهر الثقافة في علاقتها مع السلطة ينبغي أن تؤسس على الموقف النقدي وليس التبريري .[٥٦]

والحديث حول دور المثقف في المجتمع العربي ينطوي على دور المثقف في المجتمع المسلم . والإسلام يعطي بعداً آخر للمثقف في المجتمع المسلم بحيث يضحي دوره رسالياً. ولكن ينبغي أن نضع في الاعتبار أن المثقف العربي بوصفه مسلما عليه أن يتمثل الثقافة الإسلامية – العربية . وهذه الثقافة تواجه عدة عقبات و إشكاليات .'' وهذه الإشكاليات ليس اقلها الإشكاليات الثقافية التي تتبرعم عنها سلسلة من الإشكاليات العضوية الأخرى على مختلف الصعد: الحركية والسياسية والاجتماعية ، إلا أن الكثير من العاملين في حقل التبليغ والدعوة لم يتمكنوا من إدراك تضاريس الواقع وأبعاد الحياة بشكل دقيق، ولذلك واجهت خطواتهم مشكلات مفاجئه لم يتحسبو لها". [٥٧] لذلك ينبغي أن نقرأ الواقع قراءة واعية ، قراءة لا يغيب عنها الماضي. وهي قراءة ينبغي أن تكون قادرة على تفعيل العناصر الديناميكية في التراث واستلهامها كطاقة قادرة على تحريك الحاضر على أساس سليم ومتجذر لا تقتلعه رياح الإمبريالية الثقافية.

إن الركيزة الأساسية لهذه القراءة تقوم على " استيعاب التراث حيث لا يمكن تجاوز الإشكاليات الحضارية المرتبطة بالهوية والثقافة والتجديد والتحديث والتمييز الحضاري والأصالة والمعاصرة إلا باستنطاق هذا التراث وبناء الخطاب الإسلامي في ضوء معطياته وتحديد نظام الأفكار على أساسه وإنتاج الثقافة الإسلامية بعد تشرب ، وتمثل ذلك الكّل المركب." [٥٨] ولكن هذا لا يعني تحنيط هذا التراث ، بل المقصود هو عدم إغفال الثقافة التراثية أو إقصائها. لقد أصبح المثقف المسلم يخوض حرباً فكرية شرسة خاصة بعد انهيار النظام الشيوعي حيث وجه الغرب أسلحته الأيديولوجية والدعائية ضد ما توهمه العدو الجديد أو العدو "الأخضر" المتمثل في الإسلام بعد موت العدو الأحمر (الشيوعية) واستبعاد أن يشكل العدو "الأصفر" (النمور الآسيوية) أية خطر ثقافي يدير صراعاً حضارياً مع الغرب.

خاتمــة

نخلص إلى القول بأن المثقف العربي المسلم يعيش في أزمة وكذا ثقافتنا. وترتبط بهذه الأزمة الثقافية أزمة هوية إذ لا زالت الأجيال العربية الحالية تبحث عن ذاتها ولازالت تحاول أن تتلمس ملامح هويتها . وما يزيد من تفاقم هذه الأزمة في الثقافة والهوية والفكر هو كثافة الغزو الفكري الغربي الذي استقوى بثورة تكنولوجيا المعلومات والإنترنت" ومما يزيد من خطر الهجمة هو هشاشة البناء الثقافي لمجتمعنا وضعف التماسك القومي خاصة في ظل النظام الدولي الجديد

والعولمة (Globalization). وقد دخلت العولمة الحياة الاجتماعية بشكل فعلي في الإطار الثقافي عن طريق شبكات الأقمار الصناعية. والتكنولوجيا في حد ذاتها محايدة ولكن يتم توظيفها في إطار العولمة لنشر ثقافة الغرب . وقد تعرض العالم الإسلامي للاختراق بتوظيف هذه التكنولوجيا وأخذت وسائل الإعلام الغربي تلعب دوراً في محاولة قلب نظام القيم في المجتمع المسلم. والجانب الخطر في هذه الثورة التكنولوجية هو محاولة تأثيرها على نظام القيم ." وأصبحت هذه الثورة العلمية الجديدة طاقة منفلتة توظف في اتجاه إرضاء الرغبات الطبيعية الغريزية للإنسان ، ومن هنا يكون الخوف على مستقبل الثقافة،"[٥٩] إذا لم تتجذر في نظامها العقائدي ولم تتحصن ضد مخاطر تكنولوجيا الاتصال المهيمنة والمنفتحة. و لا يتأتى هذا التحصين إلا بتوافر رؤية تأصيلية تهدف إلى تحقيق الإستغلال المنهجي وإعادة بناء العقل المسلم لينطلق من التصور الإسلامي الشامل.

وفي ظل الثورة التكنولوجية الحديثة تتطور الأشياء بسرعة مذهلة .." وهذه السرعة الخارقة التي أصبحت تتطور بها الأشياء تترك أمام شعوب العالم اختياراً واحداً ، إما الإندماج في صيرورة التطور وبناء القوة الذاتية أو البقاء في دائرة التخلف .وهذا الاختيار الثاني يلغي قيمة كل حديث عن الهوية والأصالة و الشخصية الوطنية .

وهنا تطرح أزمة الهوية نفسها في هذا السياق ، إذ أنه في ظل ثورة الاتصال المتعاظمة وأجواء هشاشة البيئة الاجتماعية و الثقافية فإن هوية مجتمعاتنا العربية والإسلامية تغدو في خطر كبير أمام اتساع نطاق الاختراق الثقافي الذي تعددت وسائله وقنواته وله بريق وجاذبية إلى حد الانبهار. ومواجهة هذه الأزمة " في الثقافة والهوية يستلزم بعض الوعي بالتحدي والوعي بقدرات الذات وإدراك شمولية منهج الإسلام لعلاج الأزمة ومواجهة التحدي.

ويواجه المثقف العربي المسلم أزمة متعددة، فهناك غياب الرؤية الحضارية المستقلة والموحدة في ذات الوقت. فعالمنا العربي تتنازع نخبه مدرسة غربية ومدرسة تعبر عن الانتماء العربي – الإسلامي الذي يشكل ركيزة هوية الأمة واستقلالها . لذلك يجب علينا أن نتفق على النموذج الحضاري الذي نتطلع إليه " هل هو الغرب أم الإسلام؟

يشكل الموقف من الغرب تحدياً للمثقف العربي: هل الغرب مثل أعلى يتعين احتذاؤه وتكريس الجهد للحاق به ، أم أنه تجربة إنسانية غنية يؤخذ منها ويرد.؟"[٦٠]

من الضروري أن تحسم النخبة قضيتها وتحدد موقفها وتبلور رؤيتها في خضم هذه التحديات الحضارية التي تهدد هويتها. غير أن ذلك لا يتأتى إلا بالارتكاز إلى الثقافة الأم والأصل (العربية – الإسلامية) وأن يتم التحاور بوعي مع الثقافة الأجنبية .. وعلى المثقف العربي أن يساهم بوعي وفاعليه في بناء العقل العربي لأن أزمة المثقف وقضية الوطن العربي هي قضية " العقل". فينبغي للمثقف للخروج من الأزمة الفكرية ومواجهة التحديات الثقافية أن يساهم في بناء عقلية عربية مسلمة مستنيرة وواعية وأصيلة. وأن يجعل من قضية العقل العربي القضية الحضارية الأولى لأنها القضية التي تتوقف عليها مواجهتنا لجميع قضايانا المصيرية مواجهة قويمة؛ "فعقلنا هو الذي يوفر لنا الإدراك الحقيقي للمعطيات الفعلية لعملية تقرير المصير .. ولذلك فإننا لا نثير قضية تحديث العقل العربي إثارة نظرية بل إثارة تطبيقية وظيفية قوامها وعي الصلة الحركية العضوية بين الفكر والحياة ، وبين المفهوم والسلوك .. لذلك فإننا ندعو للثورة الثقافية أن تحرك روحنا وكياننا تحريكاً إبداعياً جديداً .. وندعو العقل العربي للتحول من صناعة الكلمات إلى صناعة الأشياء.."[٦١]

والمدخل السليم لهذا المنهج هو التأصيل في الموقف وفي الرؤية . يجب ألا نتناول القضايا الداخلية برؤية غربية وأن نكف عن استلهام الأطر الأجنبية في حل مشكلاتنا العربية فهي أُطر صنعت لظروف مختلفة وبيئة مختلفة وإن استيرادها لتطبيقها قد يفضي إلى التناقضات التي تنتهي إلى الفشل الذي أدى إلى إحباط الأجيال العربية المتلاحقة ووضعها على مفترق الطرق . وكانت المحصلة النهائية هي هذه الأزمة الحادة.

الهوامش

١- الدكتور عباس أرحيله ، '' نظرية هنتنجتون أغفلت عمق وأسرار العلاقات بين الحضارات '' ، صحيفة المستقلة ، العدد ١٧٠ ، لندن ،١٩٩٧/٨/١١.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

٤- (Samuel P. Huntington, "If not Civilization, What?" Paradigms of the Post–cold war, Foreign affairs, No. 75:5, Nov/Dec, 1993,

٥- عمر سليمان الأشقر (دكتور)، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، ط٢، عمان(الأردن)دار النفائس ،١٩٩٧ ، ص ص ٥٥-٥٦.

٦- المصدر نفسه ، ص ٥٨.

٧- المصدر نفسه ، ص ص ٥٨-٥٩.

٨- زكي أحمد ، الحركة الإسلامية ومعالم المنهج الحضاري ، ط١ . بيروت : دار البيان العربي ، ١٩٩١، ص ١٤٩.

٩- د. على هود باعباد،" الهجمة التربوية و الثقافية الغربية على الأمة العربية والإسلامية وكيفية التصدي لها"، (ورقة عمل قدمت للمؤتمر الشعبي العربي والإسلامي) ، الخرطوم ،٢٥-٢٨ إبريل ١٩٩١ ، ص٨.

١٠- زكي أحمد ، المصدر السابق ، ص ١٤٩.

١١- المصدر نفسه ، ١٤٩.

١٢- المصدر نفسه ، ١٤٦.

١٣- المصدر نفسه ، ص ١٤٨.

١٤- د. عابد بن محمد السفياني ، المستشرقون ، جدة : دار المنارة ، (د.ت) ، ص١

١٥- أنظر هـ.أ . جب ، '' وجهة الإسلام'' ، ص ٢١٤.في عابد بن محمد السفياني ، المصدر السابق ، ص ١.

١٦- مجلة الشاهد، العدد ١٣٥، نوفمبر ١٩٩٦م، ص١٠٨.

١٧- أحمد موصللي ، '' الولايات المتحدة والأصولية الإسلامية ، السفير ،١٩٩٣/٣/١٥م

١٨- محمد عابد الجابري ، الثقافة العربية اليوم ، مسألة (الاستقلال الثقافي) ، مجلة المستقبل العربي ، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربي) ، أغسطس ١٩٩٣م، ص ٨.

١٩- محمد عابد الجابري ، المصدر السابق ، ص ٨.

٢٠- المصدر نفسه.
٢١- عبد الإله بلقزيز ، ''مازال دور المثقف مطلوباً'' ، صحيفة الحياة ، لندن العدد (١٢٢٩)، ١٩٩٧/٥/١٥.
٢٢- على الجرباوي ، نقد المفهوم الغربي للتحديث ، العلوم الاجتماعية ، الكويت ، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع ، شتاء ١٩٨٦. في : نصر محمد عارف ، نظريات التنمية السياسية المعاصرة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، واشنطن ، ١٩٩٢ ، ص ٢٤٦.
٢٣- Lucian W. Pye, The concept of Political Development, in Kebschull (ed.) *Politics in Transitional Societie*s .New York: Appleton – century, 1968, P.285.

٢٤- د. محسن عبد الحميد: أزمة المثقفين، ٣٩. في: د. أحمد محمد جاد عبد الرازق ، فلسفة المشروع الحضاري: بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي ، الجزء الأول ،ط١ ، فيرجينيا : المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،١٩٩٥م ، ص ١٩٦.
٢٥- د. أحمد محمد جاد عبد الرازق ، فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، الجزء الأول: سلسلة رسائل جامعية،١٦، (قضايا الفكر الإسلامي)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٥ ، ص ٢٠٥ .
٢٦- الدكتور أكرم ضياء العمري ، التراث و المعاصرة . (سلسلة كتاب الأمة ،١٠) ، قطر : رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، ١٤٠٥هـ ، ص ص ٨-١٠.
٢٧- المصدر نفسه ، ص ١٣.
٢٨- عبد العزيز الدوري ، '' الهوية الثقافية العربية والتحديات'' ، في مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢٤٨، بيروت :مركز دراسات الوحدة العربية ، أكتوبر ١٩٩٩، ص٨.
٢٩- د. على الطاهر شرف الدين، تأصيل المعرفة : أسسه وأهدافه ، مجلة التأصيل ، العدد (٦) ، (الخرطوم : إدارة تأصيل المعرفة بوزارة التعليم العالمي والبحث العلمي) ، يناير ١٩٩٨، ص ٥.
٣٠- لؤي صافي ، العقل والتجديد ، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٢٣ ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، سبتمبر ١٩٩٧، ص ٢٧.
٣١- المصدر نفسه ، ص ٢٧.
٣٢- المصدر نفسه .
٣٣- صحيفة الحياة، لندن، العدد، ١٢٥٩٧، ١٩٩٧/٨/٢٦م.
٣٤- الدكتور عبد الغني أبو العزم، مجلة العالم، العدد ٥٨١، أغسطس ١٩٩٧، ص ٣٢
٣٥- لؤي صافي ، المصدر السابق ، ص ٢١.
٣٦- المصدر نفسه ٢١.
٣٧- المصدر نفسه .
٣٨- المصدر نفسه .
٣٩- المصدر نفسه .
٤٠- محمد عابد الجابري، المصدر السابق ، ص ١٠ .
٤١- المفكر الباكستاني إقبال أحمد ، في حوار بجريدة الشرق الأوسط . العدد ٣٨٣١، ١٩٩٧/٨/١١م.
٤٢- المصدر نفسه.

٤٣- المصدر نفسه .

٤٤- الدكتور الطيب التيزيني ، '' هل الثقافة العربية في أزمة؟'' ، صحيفة الدستور الأردنية ، ١٩٩٧/٥/٨م.

٤٥- صحيفة الدستور، عمان، الأردن، ١٩٧٥/١٠١٠م.

٤٦- الدكتور الطيب التيزيني ، المصدر السابق .

٤٧- فهمي هويدي ، '' متى تنتهي حروبنا الثقافية والأهلية؟'' ، مجلة المجلة ، العدد ٨٩٨ ، ٤/٢٧ – ١٩٩٧/٥/٣م ، ص ٣٤.

٤٨- حسن التل .'' الكتابة خارج الزمن الرديء: الحالة العربية الإسلامية المعاصرة، وتشوه العاطفة واحتلال التوازن'' ، صحيفة اللواء ، الأردن ، ١٩٩٩٤/١٢/١٤م.

٤٩- المصدر نفسه.

٥٠- عماد الدين خليل ، حول تشكيل العقل المسلم، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٩١، ص ٤٣.

٥١- د.عبد الغفار رشاد ، الرأي العام ، دراسة في النتائج السياسية ، القاهرة ،١٩٨٤، ص ١٣٢ .

٥٢- المصدر نفسه ،ص ١٣٥.

٥٣- عبد الإله بلقيز ، ''مازال دور المثقف مطلوباً'' ، صحيفة الحياة ، لندن العدد ١٥،١٢٩٤/٥/١٩٩٧.

٥٤- د.تيسير الناسف، ''دور المثقف في المجتمع"، صحيفة القدس، لندن، العدد ٣٢٨، ١٩٩٦/٧/٨.

٥٥- وميض جمال نظمي، '' المثقف العربي بين السلطة والجماهير: إشكالية العلاقة الصعبة '' مجلة المستقبل العربي، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ١٨٦، أغسطس ١٩٩٩)، ص٦٢.

٥٦- المصدر نفسه ، ص ٦٣.

٥٧- عبد الجبار الرفاعي ، الإسلاميون والثقافة التراثية ، مجلة التوحيد ، العدد ٦٤، إيران ، إبريل ١٩٩٣م ، ص ١٢٣ .

٥٨- فهمي هويدي المصدر السابق ، ص ٣٥.

٥٩- عبد الرحيم حسن، الثقافة والتطور التكنولوجي، مجلة العالم.

٦٠- فهمي هويدي ، المصدر السابق ص ٣٥.

٦١- المصدر نفسه.